

تفسير البحر المحيط

@ 401 تعالى : { وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } . ومقام يحتمل المصدر والمكان .
فقال الفراء : مقامي مصدر أضيف إلى الفاعل أي : قيامي عليه بالحفظ لأعماله ، ومراقبتي
إياه لقوله : { أَفَمَنْ هُوَ قَاتِلٌ عَلَيْهِ * نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ } . وقال الزجاج
: مكان وقوفه بين يدي للحساب ، وهو موقف □ الذي يقف فيه عباده يوم القيامة كقوله
تعالى : { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ تَجْرُ مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ مِنْ عَذْوٍ لَا تَجْرُ فِيهَا أُغْمُاقٌ } .
والظاهر أن الضمير في واستفتحوا عائد على الأنبياء : أي استنصروا □ على أعدائهم
كقوله : { إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُجُومٌ } ويجوز أن يكون الفتحة وهي
الحكومة ، أي : استحكموا □ طلبوا منه القضاء بينهم . واستنصار الرسل في القرآن كثير
كقول نوح : { فَافْتَحْ بِيْذِي وَبِذِيذِهِمْ فَتَّحَاً وَنَجِّنِي } وقول لوط : { رَبِّ
نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ } وقول شعيب : { رَبِّ إِنَّا نَعْتَجِدُ بَيْتَنَا
وَبَيْتَ قَوْمِنَا بِالْجَنَاحِ } وقول موسى : { رَبِّ إِنَّا نَعْتَجِدُ بَيْتَنَا
وَبَيْتَ قَوْمِنَا بِالْجَنَاحِ } واستفتح الكفار على نحو ما قالت
قريش : { عَجَلٌ لَنَا قَطٌّ } وقول أبي جهل : اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا
يعرف فاحنه الغداة . وكأنهم لما قوي تكذيبهم وأذاهم ولم يعاجلوا بالعقوبة ، ظنوا أن ما
جاؤوا به باطل فاستفتحوا على سبيل التهكم والاستهزاء كقول قوم نوح : { فَأْتِنَا بِمَا
تَعِدُنَا } وقوم شعيب : { فَأَسْقِطْ عَلَيْهِنَا كِسْفًا } وعاد : { وَمَا نَحْنُ
بِمُعَذِّبِينَ } وبعض قريش : { فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً } . وقيل : الضمير
عائد على الفريقين : الأنبياء ، ومكذبيهم ، لأنهم كانوا كلهم سألوا أن ينصر المحق ويبطل
المبطل . ويقوي عود الضمير على الرسل خاصة قراءة ابن عباس ، ومجاهد ، وابن محيصن :
واستفتحوا بكسر التاء ، أمراً للرسول معطوفاً على ليهلكن أي : أوحى إليهم ربهم وقال لهم
: ليهلكن ، وقال لهم : استفتحوا أي : اطلبوا النصر وسلوه من ربكم . وقال الزمخشري :
ويحتمل أن يكون أهل مكة قد استفتحوا أي استمطروا ، والفتح المطر في سني القحط التي
أرسلت عليهم بدعوة الرسول فلم يسقوا ، فذكر سبحانه ذلك ، وأنه خير رجاء كل جبار عنيد
، وأنه يسقى في جهنم بدل سقيه ماء آخر وهو صديد أهل النار . واستفتحوا على هذا
التفسير كلام مستأنف منقطع عن حديث الرسل وأممهم انتهى . وخاب معطوف على محذوف تقديره :
فنصروا وظفروا . وخاب كل جبار عنيد وهم قوم الرسل ، وتقدم شرح جبار . والعنيد :
المعانند كالخليط بمعنى المخالط على قول من جعل الضمير عائداً على الكفار ، كأن وخاب

عطفاً على واستفتحوا . ومن ورائه قال أبو عبيدة وابن الأنباري أي : من بعده . وقال الشاعر : % (حلفت فلم أترك لنفسك ريبة % . وليس وراء إلا للمرء مهرب .) % .

وقال أبو عبيدة أيضاً ، وقطرب ، والطبري ، وجماعة : ومن ورائه أي ومن أمامه ، وهو معنى قول الزمخشري : من بين يديه . وأنشد : % (عسى الكرب الذي أمسيت فيه % . يكون وراء فرج قريب .) %